شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

١

الحرية بين النقل والعقل

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

شرعة ومنهاج 2
الحرية بين النقل والعقل 3
- جذور العبودية 4
- الفطرة والعبودية 4
- قبلة الإنسان في العبودية 5
- الصوارف والمؤثرات القلبية 6
- ضبط الصوارف والمؤثرات القلبية 8
- المظالم وأثرها على العبودية 10
- الحرية المحمودة في اختيار محبوبات الله 11
- جوانب الحرية العصرية 12
- إعادة العبودية إلى فطرتها 13
- عبودية الهوى 15

شرعة ومنهاج

الشرعة هي المورد الذئ يأخذ منه الإنسان الحق ليضيء له الطريق الذئ يسلُكه ، والمنهاج هو الطريق الذئ يسير فيه الإنسان، والطريق يحتاج إلى شيءٍ من الضياء يأخذ قبسه من تلك الشرعة بامتثال .

الله تعالى خلق الإنسان ليسير إليه ضارباً في الأرض في طريقٍ طويلٍ ، أوله عنده ونهايته عند ربه ، وهذا الطريق محفوف بجملة من المخاطر والآثار وشيء من الظلمات والانحرافات ، وما كان الله تعالى ليترك عباده في ضلال دون بيان ; أنزل وحيه على أنبيائه تترئ إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ليكون منيراً وهادياً ودليلاً .

ولهذا سمي الله وحيه نوراً وسراجاً ، وضياءً وقائداً للإنسان ; يقوده إلى مرضات الله حتى يصل به إلى الغاية المرجوّة ، والنتيجة المروية بحصاد الشرعة التي أرادها الله .

الحرية بين النقل والعقل

رابط الحلقة http://www.youtube.com/watch?v=ZJaASgnBPQM

جذور العبودية

خلق الله تعالى كل شيء وجعل لكل شيءٍ سببا ، أوجد جذور وأصول للذوات وكذا المعاني والأفكار ، ولكي يدرك الإنسان فهم المعنويات والماديات لابد أن يعيدها إلى أصولها ، فإذا أعادها إلى أصولها أدرك المعنى المراد منها ولو تفرع بعد ذلك بزمنٍ بعيد .

وجذور الحرية و العبودية ثلاث :

الجذر الأول : القلب باعتبار أنه الوعاء الذى يحتوى المؤثرات التى تؤثر على الإنسان .

والقلب هو الذى يتحكم بجوارح الإنسان الخاضعة تارة ، المتشوقة للتمرد تارةً أخرى ، وإذا توجه القلب إلى معبوده كان ملكاً له ، واضمحل حظ الإنسان فيه وأصبح عبداً لله حراً من سواه .

الجذر الثاني : ملأُ القلب ، فالقلب وعاء ، قد يملأ بشيء من المؤثرات ، كالمحبوبات والمكروهات ، ومكنونات القلب لها أثرٌ كبير على حرية الإنسان وعبوديته ، فإذا تشبع قلب الإنسان بحب المال أصبح عبداً للمال ، وإذا تشبع قلبه بهوى الأنام أصبح عبداً لهم من دون الله .

الجذر الثالث : نتاج القلب ، وهي تلك الآثار أو النتائج التى تخرج من القلب تعظيماً لله أو لغيره ، وتتمثل جُلّها في المحبة والكره والخوف والرجاء .

هذه الجذور الثلاثة تتأصل منها العبودية وتنبت تحت ظلالها الحريات .

الفطرة والعبودية

فُطر الإنسان على حب الله وعبادته ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم : 30] ، ويقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة (مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ)[1] يعنى أن هذا التغير الذى طرأ على الإنسان والانحراف إنما جاء بعد ولادته بتأثير أحد من الناس عليه ، وإنما جاء النص على الوالدين باعتبار أنهم الأقرب إلى الإنسان ، وقد يُؤَثر على الإنسان من غيرهم

١) صحيح البخاريّ : كتاب الجنائز (1270) ، وصحيح مسلم :كتاب القدر (2658)

لذا يقول الله تعالى في الحديث القدسي (إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ)[٢] ، حنفاء يعني مستقيمين مع الله مائلين عن الشرك به ، ولكن اجتالتهم شياطين الإنس والجن ، فالإنسان إنما وجد أصلاً عبداً لله تعالى وحراً من غيره ، ثم ما يلبث أن يتدرج بالمنازعة في تلك العبودية الفطرية حتى يصبح عبداً لغير الله .

قبلة الإنسان في العبودية

للعبودية ثلاث قبلات : أمر الله تعالى ، وأمر المخلوقين ، وأمر النفس والهوى .

القبلة الأولى : أمر الله وهو ما يتعلق بعبودية الله وحكمه وقضائه وأوامره وشرائعه ونواهيه بما فصّل في كلامه وكلام النبي ﷺ .

القبلة الثانية : أمر المخلوقين ، وهو أن تصرف العبادة لأحد من المخلوقين ، ولا يمكن أن يعبد الإنسان مخلوق من دون الله تعالى إلا وقد تأثر قلبه به حباً تارة وخوفاً ورهبةً تارة أخرى بما استأثره ذلك المخلوق من جاه أو سلطة ومال من غير دليلٍ أو برهان .

القبلة الثالثة : عبودية الهوى بأن يطلق الإنسان لهواه العنان ، وهي سبب ضلال كثيرٍ ممن يتغنى بالحريات ، فيصبح هواه صنماً في قلبه يسجد له ويطوف من دون الله .

وعليه يدور الإنسان في دائرة ثلاثية الأبعاد :

إما أن يكون عبداً لله ، وإما أن يكون عبداً لغير الله ، وإما أن يكون عبداً لهواه ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الفرقان :43] ، فإما أن تلتف هذه الدائرة حول رقبة العبد لتهوي به في ظلمات العبودية ، وإما أن تكون له طوق النجاة ، وهذه الدائرة هي الدنيا الزائلة التي كتب الله للعبد فيها الاختيار ، أما بالنسبة للآخرة فكلٌ يأتي الله تعالى يوم القيامة عبداً طائعًا لله .

٢) صحيح مسلم : كتاب الجنّة وصفة نعيمها (5109) ، البيهقي : كتاب القضاء والقدر (523)

الصوارف والمؤثرات القلبية

من المسلمات أن ظواهر النصوص من كلام الله تعالى وكلام النبي ﷺ تشير إلى مُنازعة القلب ، فهو إما يُنازع في حق الله ، أو يُنازع في حق المخلوقين أو ينازع في حق نفسه وهوه ، ولهذا أمر الله تعالى أن يكون له الحظ الأوفر في القلب .

قد جاء في الصحيح من حديث قتادة عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)[٣] ، والمراد هنا أنه لا يمكن أن يتحقق في قلب الإنسان الإيمان التام حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من سائر الناس ، إقراراً بوجود محبة وخوف ورجاء لغير الله ، ولكن ينبغي ألا تكون غالبة على محبة الله تعالى والخوف منه والرجاء إليه .

والمؤثرات الى تملأ القلب على نوعين :

النوع الأول : المؤثرات الغيبية ، وهي التي ليس للإنسان فيها تصير ، مثل ما الأمور الكونية والأبراج والكواكب وغير ذلك ، فقد حكم الله تعالى أمرها وبيّن تدبيره فيها وأنها مسيرة لا اختيار لها ، وأنها لا تخرج عن مراد الله وأوامره ، فهذا التكوين والتسير يمنع الإنسان أن يمُد يده إليها لتتأثر به فضلاً أن يطلب منها فتجيب !

وحتى لا يتوجه الإنسان إلى أحد من المخلوقين قطع الله تعالى هذه العلائق قطعاً مشرَّعاً ، فمنع من ضبط أي شيء بالنجوم أو الاستسقاء بها ، كذلك ما يتعلق بالخوف منها أو الوجل ، وإنما جعل لها أمارات وعلامات يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر .

وما التعلق بهذه العلائق إلا ضربٌ من ضروب العبودية لغير الله تعالى وإخراجٌ لها عن فطرتها .

قد جاء عن النبي ﷺ في الصحيح حينما أصبح صبيحة مطر وقال (هَلْ تَدْرُونَ مَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ " قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : " قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ.فَذَلِكَ

٣) صحيح البخاري : كتاب الإيمان (15) ، سنن النسائي : 8 / 114 و ص 115

مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ)[٤] ، يعنى أنه ربط شيئاً من الغيبيات بمن لا حول له ولا قوة فأصبح كافراً بالله .

وما كان الله تعالى ليذر عباده حتى يبين لهم الكفر من الإيمان ، ولما كانت هذه المؤثرات أنواع ودقائق مزالق إلى الشرك بالله جاء معها النهي والتشديد .

النوع الثاني : المؤثرات العينية ، من المشاهدات والتفاعل مع المادة ، فالإنسان إذا طلب شيء أو مال وجد من يعطيه إياه ، وهذا نوع من المقابلة تختلف عن جانب الكواكب والنجوم والأبراج التي لا تتأثر بطلبٍ أو سؤال . وحتى لا يَعْبُد الإنسان غيره أو يتوجه إليه بشيء من الذل والخضوع والمودة والمحبة والرجاء وغير ذلك من الأعمال القلبية ضبط الله تعالى هذا الأمر بأوامره ونواهيه .

فعلى الإنسان أن يأخذ هذه الأمور بقدر ، ولا يعطيها أعظم من قدرها ; حتى لا يكون الإنسان منطرحاً بين يديها فيصبح حينئذٍ عبداً لها من دون الله تعالى .

ولقد أتم الله تعالى ضبط هذه المؤثرات وحدّ حدودها وجعل مرجعها إليه ، فليس للإنسان أن يتصرف فيها سواءً كان حاكماً أو محكوماً ، سيداً أو فقيراً ، صغيراً أو كبيراً ، وإنما فصلها إلى الله تعالى ; حتى لا يتنازع الناس العبودية .

والإنسان يميل في حياته وفي ذاته إلى التعلق بالأوهام ، والذهن يسترسل ويبحث عن الغيبيات ; ولهذا كثير من الناس يتعلقون بالأبراج والكواكب وغير ذلك ، فيجعلونها على سبيل الوهم معبوداً من دون الله فيقعون في الشرك والكفر من حيث لا يشعرون .

وكثيرٌ من الناس يظن أنه إذا تخلص من عبودية الله أصبح حراً طليقاً منعتقاً من كل آمر ويخفى عليه أنه قد تحول لغير الله ، فهو بين ثلاثة أواني لابد إذا نزح شيئاً من إناء انتقل به إلى الإناء الآخر ، فإذا تحرر من عبودية الله فثمة عبوديةٍ أخرى ترقد تحت أوهام الحريات .

٤) صحيح البخاري : أبواب صفة الصلاة (810) ، وصحيح مسلم : كتاب الإيمان (107)

ضبط الصوارف والمؤثرات القلبية

لم يرسل الله تعالى رسله لتوجيه العبادات فقط وإنما لضبط الحريات التي لو أطلقت دون لجام لتفلتت وجرفت الإنسان خلف هواه .

لذا جاء الضبط الإلهي لكل صارف من صوارف القلوب حتى لا تزوغ وتروغ ، ضبط الله المال بجوانبه المتباينة الأخذ والعطا ، ضبط الزكاة والأعطيات ، ضبط أمور المال العام والخاص ، تصرف الحاكم والمحكوم ، نفقة الإنسان في ذاته على نفسه وعلى زوجة وضابط السرف فيها ، بذل الزكاة ومقاديرها في النقدين وفي الزورع والثمار ، وما يتعلق ببهائم الأنعام وعروض التجارة .

ضبطها الله تعالى كلها بأوامره ونواهيه وأحكامه وحدوده فلا يتذلل الإنسان لأحد ولا يخاف من أحد ولا يتخذ معبوداً من دون الله .

يقول الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة : 29] ، وهذا إشارة إلى أن الأصل في أمور المال إنما هو حق للناس على حدٍ سواء ، وقد جاء ذلك في جملة من الأخبار منها ما رواه ابن ماجة في كتابه السنن من حديث مجاهد عن عبد الله بن عباس أن النبي ﷺ قال (النَّاسُ شُرَكَاءُ فِي ثَلَاثٍ: فِي الْمَاءِ وَ الْكَلَأِ وَالنَّارِ) [٥] إشارة إلى أن هذه الأمور من أكثر الأشياء التي يحتاج إليها الناس فهم فيه شركاء ، وإنما ذكر الكلأ ويتبعه الأرض ; لأن الأصل فيها أن الناس فيها على حدٍ سواء .

و النبي ﷺ لا يقسم المال إلا وفق مراد الله تعالى ; حتى لا يُشرّع الفعل بالتقليد وهو المعصوم; لذا يقول النبي ﷺ كما جاء عند أحمد في كتابه المسند من حديث عبد الرحمن بن أبي عمرة عن أبي هريرة أنه قال (مَا أُعْطِيكُمْ وَلَا أَمْنَعُكُمْ ، أَنَا قَاسِمٌ أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ) [٦] يعني حيث أمرني الله تعالى ، لا أمنع أحداً ولا أعطي أحداً من تلقاء نفسي ، وإنما الأمر كله لله .

٥) رواه أحمد في " مسنده ، وابن أبي شيبة في " مصنفه في الأقضية

٦) صحيح البخاري :كتاب فرض الخمس (2949) ، وقد أخرجه أبو داود من طريق همام عن أبي هريرة بلفظ (إن أنا إلا خازن)" (فتح الباري 218/6)

ضبط الله أمور الأموال و العطاء و القسمة و المال العام والخاص حتى لا يكون في ذلك استئثار ، فتستدعى نوعاً من أنواع العبودية فيعبد المحكوم الحاكم والفقير الغني .

وقد جعل الله في أموال الأغنياء حقٌ معلوم من الواجبات والمتحتمات ، مثل الزكاة والنفقات في حال وجود الفقر والفقراء فيجب عليه أن يقوم بالنفقة عليهم وسد حاجتهم ، وألا يكون في ذلك شيء من الاستئثار ; لأن الاستئثار هو الذى يولد شيء من الرغبة والخوف والرجاء ما يلبث أن يتحول إلى العبودية البغضاء .

وما كانت العبودية لغير الله لتجد لها في الأرض مكان إلا بوجود الاستئثار سواء كان بجاه أو سلطة أو مال أو عقوبة أو غير ذلك .

ومن آثار ملأ القلب : الحب والخوف والرجاء ، فالإنسان يحب المال ، يحب السلامة ، يحب الحياة ، يخاف من الموت ، يخاف من المرض ، يخاف من الفقر ، يخاف من الظلم في دمه وعرضه وماله ، هذه المظالم إذا غُيّب جانب حكم الله تعالى فيها وقضاؤه غُيّب معها جانب العبودية لله فيقع معبود وعابد لغير الله، فيعبد الضعيف القوى لتسلطه واستئثاره ; ولهذا جعل الله الحكم والقضاء في الأرض له ، وجعل للمال أحكام لا تطلق فيها الحريات حتى من قبل الحاكم أو الفرد والعوام ، فالإنسان في ماله مأمور ومكلف ، وكما جاء في مسلم أن النبي ﷺ قال (كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ)[٧] يعنى عن ذريته بنين وبنات وكذلك أزواجه وإخوانه ، فيأثم ; لأن تقصيره في هذا يدفع غيره إلى بذل شيء من العبودية لغير الله والتى هي الأصل فيها ألا تصرف إلا لله تعالى .

لهذا يقول الله تعالى ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[المائدة :49] ، ويقول ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [يوسف :40] ، ويقول في الآية الأخرى ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾[الأنعام :57] .

هذه الأحكام التى جعلها الله في أمور العطايا والهبات من السلطان ، ومن الغني ، من الرجل إلى أهله من جهة العدل ، حتى بين الزوجات ، وبين الأبناء ، فإذا وجدت شعبة من شعب الظلم وجد ما يقابلها شعبة من شعب العبودية ; ولهذا ثمة تلازم بين اختلال أمر الله ووجود شيء من الصوارف والعبودية لغير الله تعالى .

وإذا أراد الإنسان الحرية الحقيقية التى أرادها الله له فعليه بالامتثال لحكم الله ، فكثيرٌ من الناس يظنون أن أحكام الله التى يُنزلها في الناس وقضائه وتشريعاته ، إنما هي أشياء تعبدية محضة ، كحال العبادة والتسبيح والتهليل

٧) صحيح مسلم : كتاب الزكاة، (996) ، أبوداود : كتاب الزكاة (1692) ولفظه: "كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول".

والذكر والصلاة ، يظنون أنه لازم له لا يتعدى إلى غيره ، وهذا لعمر الله من أعظم الأخطاء التى تطرأ على كثير من الناس ، ولهذا بيّن الله أن الحكم فيه عدلٌ وأنه أرسل أنبيائه بالعبادة والعدل والقسط .

يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد :25] ، فالله ما أرسل الأنبياء بالكتاب والبيّنات مجرداً ليتعبدوا لله، بل أنزل معهم الكتاب والميزان حتى ينصف الإنسان من جهة العطاء و النفقة والحقوق والواجبات .

وما تعبد الفقير بالغني إلا من مغبة الاستئثار ; لهذا يقول النبي ﷺ كما جاء في الصحيح من حديث أبي هريرة (تعِس عبدُ الدينارِ ، تعِس عبدُ الدرهمِ ، تعس عبدُ الخميصةِ ، تعس عبدُ الخميلةِ ، إنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تعِس وانتكَس وإذا شيكَ فلا انتقشَ)[٨] ، يعنى أن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى هذه المرحلة من عدم قدرته على نزع شوكة لا تعجزه إلا بتعلقه في الدنيا وشغله الشاغل بها ف أصبح معبوداً لها من دون ا الله ;ولهذا شدد النبي ﷺ في أمر المال حتى في جانب الأغنياء والحكام.

وقد جاء في الصحيح من حديث خولة أن النبي ﷺ قال (إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ اللَّهِ بِغَيْرِ حَقٍّ ;فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٩] إشارة إلى أن المال الموجود في الأرض هو مال الله ، فلا يستأثر به غنى أو قوي أو حاكم .

وإذا وقع شيء من الاستئثار في المال وجد تبعاً لذلك جانب من جوانب العبودية ، فيتذلل الفقير للغني ويتذلل الضعيف للقوي ; لهذا جعل الله الأحكام إليه ، ونهى عن أمر الشفاعات ، وجعل ضوابط متسلسلة في هذا الجانب قطعاً لمادة العبودية لغيره ، وكذلك حتى تفهم وتدرك معانى الحريات .

المظـالم وأثرها على العبودية

لا تخلو الحياة من رياح الظلم وغثاء العدوان ، و الله تعالى حسم جوانب الظلم ، وجعل الحكم والقضاء فيها منه وإليه ، ولهذا أمر النبي ﷺ أن يحكم بما أمر الله ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾[النساء :105] ، يعنى بما أراه الله لا بما يرى من تلقاء نفسه وهو النبي ﷺ المعصوم المسدد المعان فكيف بغيره من الخلق وعصاة الأنام

٨) صحيح البخاري : كتاب الجهاد والسير (2887)، ورواه ابن ماجه في سننه (4136) بلفظ (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش)

٩) صحيح البخاري : كتاب فرض الخمس (2950)

ضبط الله تعالى جوانب الحدود ، جوانب التعزيرات ، جوانب العفو والمسامحة ، وجعل لها حدوداً ;حتى لا يستأثر الإنسان بعقوبة ، فإذا جاء بعقوبة من تلقاء نفسه أصبح المعاقب خائفاً منه فبذل له من العبودية ما يخالف مراد الله تعالى ; لهذا جعل الله حدوده في أمور العقوبات تؤول إليه ليست إلى أحدٍ سواه ، ولذلك لما جاء اليهود إلى رسول الله ﷺ وأرادوا أن يحكم فيهم أنزل الله قوله تعالى ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ اللهُ﴾ [المائدة :49] ، يعنى بما أنزل الله لا بما يقولون ولا بما تقول أنت ولا بما يقول الناس قطعاً لحزازة النفس وحظها واستئثارها لشيء من العقوبة .

وكذلك القصاص و الدماء والأعراض والحبس و النفي وغير ذلك من العقوبات التى يوقعها الإنسان على غيره ، كلها مردُّها إلى الله ليست إلى لإنسان ، وإذا وقع استئثار ولم يكن الحكم بما أراد الله فيها أصبح بالأهواء ، ووجد خائف من غير الله ، ووجد محب لغير الله ، وانصرفت القلوب ونقص الإيمان .

قد روى ابن جرير الطبري في كتابه التفسير من حديث الأعمش عن مجاهد بن جبر قال " الْقَلْبُ كَالْكَفِّ ، فَإِذَا أَذْنَبَ الذَّنْبَ انْقَبَضَ ، وَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا آخَرَ انْقَبَضَ ثُمَّ يُطْبَعُ عَلَيْهِ وَهُوَ الرَّيْنُ "[١٠] المراد من ذلك أن القلب كحال الإناء أو الكف ، إذا قبض الإنسان بشيء من الذنب والمخالفة – والمخالفة إما أن تقع من القوى أو الضعيف – فيصبح ذلك القلب خالياً من عبودية الله متوجهاً إلى غيره .

فلا توجد حرية تامة للإنسان في هذه الحياة ، ولا يمكن أن يكون الإنسان عبداً لله إلا بامتثال أوامره ، وإن لم يمتثل لله بالعبادة تذلل لغيره لا محال .

الحرية المحمودة في اختيار محبوبات الله

لما فطر الله تعالى خلقه على العبودية ما كان ليذرهم يتعبد كلٌ منهم كما يشاء ، فالعبودية محكومة وفق أمره ونواهيه ليس للإنسان أن يحدث في دين الله غير ما شرع ; لأنه إذا أحدث شيء في دين الله فعبد الله بغير ما شرع فقد جعل نفسه مُشرعاً من دون الله ; لذا حمى الله تعالى عبوديته من الزيادة أو النفصان ، وهذا بيّنٌ ظاهر في كثير من النصوص كما في قول الله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ﴾ [الأنعام : 153]

١٠) الطبري : كتاب التفسير (ص 288)

والمراد بالسبل هي البدع والشبهات كما جاء ذلك عن مجاهد بن جبر كما رواه ابن جرير الطبري وغيره ، كذلك ما جاء في البخاري من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال (مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ)[١١] .

وطالما أن الله قد حكم في الجزئيات فيحكم في الكليات وهو أصل الدين ; ولهذا يقول الله تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران :85] ، يعنى أن الدين كله لله ، وهو دين الإسلام الذى أمر الله به في كتابه ، وهذه الآية دالة على شمولية دين الإسلام وخدمته للرسالة ، ووجوب الدخول فيه وتحريم الخروج منه بالردة فلا يقبل منه .

وحرية الإنسان مع الناس ليست على الإطلاق ، فما من أمر إلا و قد جعل الله فيه حكماً وقضاء ، كجوانب البيوع والمواريث والحدود ، وما يتعلق بعلاقة الحاكم مع المحكوم ، وعلاقة الفرد مع الفرد والجماعة .

وما من شيءٍ مظنة اشتراك إلا وضبطه الله بأحكام ، وكلما كان الإنسان منفرداً كلما قلت أوامر الله عليه .

فلو أن الإنسان وجد في الأرض منفرداً ما أنزل الله عليه أحكام المواريث باعتبار أنه لا شريك له من جنسه، كذلك جوانب حدود القتل أو الزنا فلا وجود لها في الفلاة ، ولكن كلما زادت الأطراف مع الإنسان من جنسه أوجد الله ضوابط لسيرها واستقامتها ، فجاء بحد السرقة و الزنا والقصاص ، وإذا أصبح الإنسان خالياً فلا حد لسرقة ولا زنا ولا قصاص باعتبار أنه في فلاة.

جوانب الحرية العصرية

اختلت الموازين وانجرفت الأقلام وباتت الحرية في هذا العصر سيلاً عارماً من التجاوزات ، جاء بطرق متعددة فسالت منه أودية وشعاب من الأفكار والآراء والأقوال الشاذة امتلأت بها الصحف والكتب والإعلام والمنابر فضلاً عن العقول والأفهام ، فأصبح يدعى إلى الحرية من غير معرفةٍ صائبةٍ لها أو بيان .

ولقد وصل مصطلح الحرية إلى حد غلو كبير ، فالحرية بمفهومها الحديث هي حرية منفكة عن الحرية التى أرادها الله تعالى للإنسان .

١١) صحيح البخاري : كتاب الصلح (2550)،صحيح مسلم: كتاب الأقضية (1718)

بدايةً نشأت الحرية في الغرب تمرداً على المظالم التي طرأت في أمور الأعراض والأنفس والدماء والأموال وغير ذلك ، فأرادوا الانفكاك من تلك القيود من غير ضابط ، انفكوا من تلك القيود ، بحثوا عن ضابط ولم يجدوا ضابط فرجعوا إلى نفوسهم وأهوائهم فوصلوا في نهاية المطاف إلى حدٍ لا يمكن لبشرٍ أن يقبله .

تعددت مسميات الحرية في الغرب و لعل أشهرها الليبرالية ، بدأت في الأموال بالحرية ثم توسعت إلى الإنسان لتغرقه في بحر الحريات ، فأصبحوا شركاء لله تعالى يأمرهم فيخالفوه ، فوقعوا في الخروج لا من عبودية الله إلى عبودية المخلوقين بل إلى عبودية الهوى التى حذر الله تعالى منها ، فانفلتت معها جميع الأقوال و الأفعال وكذلك المقاصد والنيات .

إعادة العبودية إلى فطرتها

إذا أدرك الإنسان أنه في ضلال وأراد أن يعود عبداً لله ، فعليه بالتحرر من الخلق والتجرد للخالق .

قد روى البخاري وغيره من حديث عمر بن الخطاب عليه رضوان الله تعالى قال (يَا رَسُولَ اللهَّ وَاللهَّ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي ، فَقَالَ : لَا يَا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ ، قَالَ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي ، قَالَ : الْآنَ يَا عُمَرُ)[١٢] ، و المراد من هذا أن نفس الإنسان لها توجه وحظ وشره بالاستئثار في حب الذات ، كما أن للناس حظوظٌ بجذب غيرهم لعبوديتهم و الاستئثار بشيء من حق الله تعالى الذى قضاه وآمر به وشرع له الشرائع .

وحتى جانب التخويف ، فليس للإنسان أن يخوّف أحداً إلا بأمر الله، فمجرد التخويف يعتبر نوع من العقوبة ، ولهذا لما دخل رجل على النبي ﷺ ترعد فرائصه فقال (هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ)[١٣] ، أراد النبي ﷺ أن يبين أن مقامه محفوظ بالنسبة للأحكام والعقوبات ، أما ما يطرأ على

١٢) صحيح البخاري: كتاب الإيمان والنذور (6632) ، ومسند الإمام أحمد (4 / 336)

١٣) سنن ابن ماجه (3312) ، الحاكم في المستدرك (3790)

الناس من آثار الهيبة، فعلى الإنسان أن يدفعها ; لأنه لا ينبغي له أن يطبقها إلا في أمر الله ونهى ، وألا يبذل الخوف إلا لله .

لهذا الذى يجب أن يُخاف من دون الله هو متكبر ينازع الله تعالى في ردائه ، فإذا علم الإنسان أن أحد من الناس يخافه من دون الله ، فعليه أن يلجئه إلى شيء من الأمن وأن ينفي عنه دواعي الخوف منه .

و كما أشار النبي ﷺ في الحديث آمراً عمر بن الخطاب ألا يحب أحداً أكثر منه ، باعتبار أنه مبلّغ عن الله ، وطاعة الله تعالى هي قرينة لطاعة رسول الله ﷺ والعكس كذلك لا باعتبار أنه سيد في قومه أو بشرفٍ أو جاه .

ولكي نعود بالعبودية إلى نشأتها الفطرية ،لابد من إعادة الأمور وفق ما أرادها الله لها ، والإنسان لا يعبد غيره إلا وهو يرجوه أو يحبه أو يخافه أو يتوكل عليه بشيء من المؤثرات ، إما لاستئثار في مال أو سلطة أو أمر ونهي زائد عن مراد الله .

والعبودية العظمى هي أن ينفى الإنسان الشرك عنه بكل صوره وأنواعه ، كبيره وصغيره ، ما يتعلق بالأصنام والأوثان ، والأوهام والكواكب والأبراج ، وجعل أنداد من دون الله ، وكذا الطيرة والتشاؤم ولعل أكثر صنوف التشاؤم التعلق بالأبراج ، والخوف مما لا يثبت خوفه ، ولا دليل على وجوده من المادة ولا من علم الله المبين في الوحي كتاباً وسنة .

لهذا كثير من الناس يقعون في الشركيات يتعلقون بالنجوم ويخافون ويعطلون أسفارهم ، وربما ينصرفون إلى شيء من الأعمال التي لا يريدها الله تعالى خوفاً من وجود عارضا أو طارئاً توهماً .

وهنا يكون من الواجبات المتحتمات تبليغ الحق كما أراد الله دون زيادة أو نقصان ، أن يُبلّغ المحكوم بحقه عند الحاكم ، يُبيَّن للحاكم الحق الذى عليه بالنسبة للمحكوم – الحق المتبادل بينهم – حتى لا تنشأ بينهم عبودية .

قد وجد الآن من طغاة الحكام من يسجد لهم ولصورهم من دون الله ، وهذا نوع من طول الأمد في العبودية ، فمثل هذا الاستئثار بالسلطة والأمر والنهي ، و الاستئثار بالمال ، والتخويف والتصرف وغير ذلك خلق في نفوس الناس شيء من العبودية التى لا ينبغي أن تصرف إلا لله تعالى ، فلابد من إعادة هذه الأمور على ما أراد الله حتى تعود شعب العبودية لله ، فتكون أمور المادة والأمر والنهي وأمور العقوبات إنما هي دول بين الناس كلما وقع من الإنسان أمرٌ امتثل فيه لأمر الله ; لأن الله هو من أمر بذلك لا لكونه صدر من فلان ، أو أن الله جعل في فلان أمراً ، بل إنما يمتثل أمر الله من جهة الحقيقة كأمر الأب لابنه ، و أمر الحاكم للمحكوم ، وحكم العالم في الحلال والحرام إذا افتى وفق مراد الله تعالى كتاباً وسنة .

عبودية الهوى

كثيرٌ من الهوىٰ يهوي بالإنسان إلىٰ العبودية والضلال ظناً منه أنه يتحرر من الأغلال ، فعبودية الهوىٰ هي سبب ضلال كثيرٍ ممن يدعو إلىٰ الحريات وينادي بها ، خاصةً الحرية بالمفهوم الغربي اليوم وما يسمىٰ بالليبرالية ، فيجعلون الحرية هي تجرد من الخالق والمخلوق ، يؤصلون للانعتاق ويقعون من حيث لا يشعرون في عبودية النفس والهوىٰ .

يقول الله تعالىٰ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ ﴾ [الجاثية :23] ، يعنىٰ أن الإنسان اتخذ من هواه –الذىٰ يصدر عنه – معبوداً من دون الله ، فيعبد هواه بإشباع غرائزه من متعة أكلٍ وشربٍ وإمتاع سمعٍ وبصرٍ وفرجٍ وغير ذلك ، حتىٰ لو كان عالِماً فلن ينفعه علمه فإن الله بيّن أن الإنسان إذا استحكم فيه هواه أغلق مسامعه ومنافذ العلم عنده بشيء من ذلك الهوىٰ ; ولهذا الهوىٰ من مغاليق القلوب يغلق الله به المسامع والأبصار ويغلق به حس الإنسان عن إدراك مراد الله ومقتضىٰ الإيمان .

تحول الغرب اليوم بلبراليتهم من عبودية خارجة إلىٰ عبودية ذاتية ، فنشأ لديهم الانحراف في العقائد والأخلاق والأموال ، فعبدوا أهوائهم وانصرفوا إليها ، وظنوا أنهم متحررين ، وهذا ظاهرٌ في قول الله تعالىٰ ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [القيامة :36] ومعنىٰ سدىً أىٰ لا يُؤمر ولا يُنهىٰ ، ولهذا أقرب الأوصاف إلىٰ الليبرالية الغربية هذه الآية ويصدق ربما الوصف عليها بأنها "السُدويّه" التىٰ تريد من ذلك الانعتاق الكامل من كل آمر ; ولهذا يقول سعيد بن جبير كما روىٰ ذلك ابن جرير الطبري وغيره في قول الله تعالىٰ ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدىً ﴾ [القيامة :36] قال : لا يؤمر ولا ينهىٰ ، ويقول الشافعي : " لم يختلف أهل العلم بالقرآن فيما علمت أن السدىٰ الذي لا يُؤمر ولا يُنهىٰ "[١٤] .

فيظن أنه لا يوجد آمر عليه إلا هواه ، وهذا نوع من الاستئثار بالنفس ونوعٌ من العبودية التىٰ ارتدت من خارجه إلىٰ ذاته ، عافانا الله وإياكم من ذلك .

١٤) السنن الكبرى (113/10 ، ط . المعارف الهندية)